دراسات في أدبنا الحديث

سعيد تقي الدين الدرامائي

بقلم مارون عبود

افتتح سعيد مقدمة «نخب العدو» بما يلي : « انني ادفع الى المسرح العربي برائعة يفتخر بها أي درامائي كان ، في أي لغة وأي زمان ، ولئن دار في خلدك انه قد تدحرجت من فمي كلمة ادعاء ضخمة ، فأنا أدعوك إلى المقابلة ، فأت بأية رائعة افرنجية وقابلها بنخب العدو ، حادثة ومواقف ونكات ، وأشخاصاً ومفاجآت، وحركة وتضاداً ، وشبكة فنية وسلاسة ، تجد نخب العدو تضاهي أجلهن في كل شيء . وقد تكون دون بعضهن في روعة المأزق ولكني واثق من ان نهايتها هي اجمل نهاية روايه تعرفها بدون استثناء وعلى الاطلاق » .

انتهى التبجح.

قد لا تصدق ما تقرأ . بلى صدق . فما نقلته لك ليس من مخطوطات وعاديات راس شمرا وحجر رشيد . إنه من كتاب تستطيع ان تتناوله بسهولة. قد يكون سعيد مبالغاً فيما كتب ولكنه قادر على عمل كوكتيل عجيب من الجد والهزل حتى لا تدري إن كان يهزل او يجد . ولكنه كما قال موليير – الذي تبنى سعيد مواقف شتى من مسرحياته – : لا هزل بدون حقيقة . فسعيد في اسلوبه وسرده كلاعب السيف والترس «الحكم» رشاقة وخفة يد وحركة دائمة ، فما عليك الا ان تشد حذاءك جيداً وتشمّر وتلحقه .

قد يكون سعيد مبالغاً ولكنه خير من ألف مسرحيات ناجحة ، بل هو الدرامائي الاول عندنا في هذه الفترة ، وإن شئت فكما كتب على قفا «غابة الكافور» والكلام للشاعر نزار قباني :

« هو إله صغير سقط من شبابيك نجمة متلألئة فشربته ارض لبنان » .

لم تدلنا كلمة « صغير » على حجم هذا الاله ، وعلى كل، فأقل جرم إلهي يكون عظيما جداً بالنسبة الينا نحن الترابيين . إذن فلأقل « النومن » قبل ان ابدأ عملي :

اؤمن بسعيد تقي الدين، الخالق الضابط لكل ما يرى وما لا يرى الخ ... أجل انا اؤمن بعبقرية سعيد وبخيلته الوثابة ، وبعبارته المصنوعة حديثاً ، واؤيد رأيه في نفسه ، فهو درامائيّنا في هذه الفترة ، ولو كان عندنا مسرح لكان يجلس سعيد في لوج الشرف وينظر الى الجماهير من علٍ ويقول للنظارة: فكروا يا ذبان ، افهموا الفن .

وحق ربنا ، يا سعيد ، أنا في هذا جاد لا امزح ، اما إله صغير فهذا هراء . إن « لولا المحامي » – التي تزدريها انت – و « نخب العدو » و « حفنة ريح » تحف نادرة ، ومع هذا لا بد من النقد . فلنفرض ان هذا العبقري إله لا نصف إله ،فلا بد له من نقد . فالله جل جلاله انتقد ، ولا يزال ينقد ، وأول ثورة كانت عليه : « خلقتني من نار وخلقته من طين .»

قد يقول القارىء انت لم تعودنا هذا اللف والدوران ، فما بالك اليوم تغيّر عادتك ولا تقول كلمتك وتمشي؟! فالى هذا القارىء اقول : يجب قبل كل حساب ، ان نصفّي الحساب ، حساب الناقد . فسعيد ليس له عدو على الارض الا الناقد . اما في العالم الذي سقط منه الينا فهذا علمه عند نزار قباني ...

سعيد تقي الدين

نرى سعيد من جهة يزدري الناقد ويحتقر ما يقول « فالنقد – في زعمه – فن زائف ومهنة طفيلية ، النقد يوهم صاحبه، ولو ضمناً، بالتفوق على المنقود . انا انقدك إذاً انا افضل منك ... زد على ذلك ان النقد يضع بين يدي الاديب او المتأدب موضوعاً جاهزاً فلا حاجة الى حك الرأس والتنقيب عن موضوع . كذلك ليس من انتاج مهما عظم الا وفيه نواح ضعيفة يسهل اكتشافها ، فتسري نشوة الظفر في عروق الناقد مكتشفها . كذلك التطرف

يولد التطرف ، والمديح بلا وزن سبب النقد الاعمى » اه .

ترى من اي وزن هو قول نزار قباني الذي زُينت به قفا غابة الكافور ؟

ذاك رأي سعيد في الناقد ، كما اثبته في الصفحة الثامنة من نخب العدو ، واما ما في ذيل « حفنة ريح » فيقول سعيد حين قرأ نقد الدكتور سهيل ادريس لنخب العدو : « شعرت بقربى تربطني بك بعد قراءة نقدك الرائع في جريدة «بيروت» لنخب العدو ، ولو انه اعطي لي قبل اليوم ان اطلع على مثل هذا النقد لترددت في قول « النقد فن زائف ومهنة طفيلية » .

اسمح لي يا سعيد ان اعود بك إلى البدء ، إلى ما قبل الخليقة عندما بدأ الله في تأليف كتابه الاعظم ، اي تكوين الكون ، قال ليكن نور فكان النور ، ورأى ان النور حسن ومضى في الخلق والتساؤل فيرى ان ما خلقه حسن حتى اليوم الاخير . أظن ان هذا التساؤل يدلك كما يدلني على انه تعالى كان ينظر إلى عمله كناقد حتى إذا رآه حسناً ، راح يتم تأليف كتاب الخلق المؤلف من ستة أقسام . وفي القسم الاخير خلق الانسان ، ولو لم يكن الله ، جل جلاله ، ناقداً لما وجه إلى اعماله هذه النظرة .

فالناقد الاول كان الله ، وهو في الوقت نفسه المؤلف الاعظم وان لم يؤلف مثل نخب العدو . وانه اطرى عمله كما اطريت انت مسرحيتك ... ولو لم يكن الله ناقداً ملهماً لما عرف ولا قال ان ما خلقه حسن .

قلتَ إن الناقد يجد موضوعاً جاهزاً ، وانا اقول لك : نعم ، ولكن المواضيع جاهزة كلها ، والذكي مثلك من يفصلها ويضعها في واجهة دكانه ، ثم يبيعها كأنها « استعمال » .

النقد فن يا سعيد . اما انت فكبطل صديقك موليير تسب الناقد وانت ذاك . ففي جميع مسرحياتك : لولا المحامي ، ونخب العدو ، وحفنة ريح ، انت ناقد ، وسأريك . اما الفرق ما بيننا فهو انك تفتش عن بطلك بين الناس ، وانا افتش عنه بين الكتب ... اظنك قرأت مسرحية موليير «البورجوازي» استغرب ذاك البورجوازي جداً حين قال له معلم الفلسفة ان النثر هو ما يحكيه ، فقال لمعلمه : إذن انا اتكلم النثر منذ اربعين عاماً دون ان اعرف ذلك ! كثّر الله خيرك لانك خبرتني ذاك » .

فهل تستغرب انت ايضاً إذا قلت لك انك ناقد في كل مسرحياتك ، وكثيراً ما تكون ناقداً ادبياً ثم لا تخرج من الجو الادبي إلا لتكون ناقداً من نوع آخر ، فأنت إذن ناقد مهما اغرتك انانيتك وحملتك على ازدراء النقد .

إن الناقد هو الذي يدل الناس على مواهب المؤلف ، كما سأدل على مواهبك ، وأنت ناقد يا بطل موليير ، وناقد لا يرحم . يتكلم من الاعالي وعلينا ان نضع على وجوهنا برقعاً ، كما كان يفعل موسى حين يتحدث اليه ربه ... وإذا لم تصدقني فراجع نقدك لقصص صديقك الذي اكتشفته ، الدكتور سهيل ادريس . لقد تشكيت في مقدمة « نخب العدو » كثرة المديح المتفشي عندنا ، وكذلك تألمت من النقد ، فحيرتني والله . واخيراً اهتديت إلى حل لهذه المعضلة ، وهو ان نمدح حيث يجب المدح ونقدح حيث نجد مدخلاً (للخرّبرّ) .

فلنبدأ عملنا .

المسرح عندنا صغير السن حديث الميلاد . نشأت مسرحياتنا الاولى لا هي عامية اللهجة ولا هي فصيحة ، ثم صارت فصيحة حتى التقعّر ، في أواخر القرن التاسع عشر . شعرية مع عبدالله البستاني ، وشعرية نثرية مع اديب اسحق ، وأخيراً مع نجيب الحداد . كانت مواضيعها مختلفة ولكنها كلها تمثل الطبقات العليا أو ما اشبهها من حوادث قديمة ، إلى ان جاء شوقي ونظمها شعراً رائعاً في مواضيع تاريخية ادبية ، ونهض فرح انطون بالمسرحية فجعلها شعبية استقى مواضيعها من الحياة العامة . وقفز سعيد تقي الدين من مقعد المدرسة إلى المسرح ، وهو ذاك العتليت بلغته ، والعتعيت بلغتنا العامية ، فكانت قفزة موفقة جداً ، وحسبك الدليل على ذاك التوفيق ان يسمع مؤلفها سعيد ، في مخزن امين ابي ياغي ، كلمة : اهلاً بالنابغة ، من امين الريحاني ، فنام سعيد على اكليل الغار منذ عام ١٩٢٤ ، ولم يستيقظ من تلك النومة الذهبية الاحلام إلا في جزائر الفيليبين ، الشرق الاقصى عام ١٩٣٧ . وليسمح لي ان احرّف ما قال : ناخ نوخة جمل ، وقام قومة سبع . فمسرحيتنا طليانية فرنسية مع أبي المسرح اللبناني مارون النقاش ، وفرنسية انكليزية مع الذين جاؤوا بعده .

كانت تعتمد اولاً على البيان الاصطناعي لان الذين ترجموا او ألفوا في هذا الفن كانوا يكتبونها للقاريء ولا يفكرون المرسح ، ولذلك جاءت شخوصهم جامدة لا تدل على انها بشر تحيا وتتكلم كما نحيا ونتكلم ، وتروح وتجيء كما نجيء ونروح . كان مؤلفوها متزمتين حتى لا ترى على المسرح وجهاً ضاحكا

هازلاً ، واذا كان لا بد من الضحك او الاضحاك ألفوا فصولاً مضحكة تمثل بين الفصول . اما الهزل والدعابة والنقد والهجاء الاجتماعي فلا نكون مبالغين اذا قلنا ان سعيد تقي الدين هو الذي اشاعها في المسرحية ، فالهزل يسيطر حتى على درامته ، فكأن ليس بين ابطاله واحد يحبه . او كأنه لم يخلق بطلاً ، او لم يستعر من المجتمع بطلاً ، الا ليضحك من الناس او يضحك الناس منه . واذا كانت ابطال مهازله قومية بلدية فلا يعني هذا انه خلقها ، ولا انه استعارها من روائي آخر ، (كمسطرة) يعمل مثلها ، بل انها نماذج عايشها ورآها بعيني رأسه — كما عبروا — . فهو في لولا المحامي مثله في نخب العدو وحفنة ريح ، يمثل اشخاصاً عايشها وآكلها وشاربها وتأمل حركاتها وسكناتها ، وراح يخلق منها قصة بعدما انطقها بما يلائمها من الفاظ وتعابير تضحك المفلس . تعابير يتعمدها ويعتمد عليها في اخراج روايته ، وهو لم يبدعها كلها ولكنه جلاها وصقلها جميعاً حتى لاءمت مذهبه الفني . وهذه العبارات هي من صميم حياة ابطاله فكأنهم هم قالوها حقاً . ليست عبارة مسرحيات سعيد من المصنوعات البيانية ، وهذا سر نجاحها ، ففي فم كل شخص كلمات وعبارات لا تصدر الا عنه . اذا لم ترض ، احياناً ، هذه العبارات البيانية فلسعيد بيان خاص به ، وليدق البيانيون رأسهم بالحيط ...

تدل مسرحيات سعيد على عين لاقطة ، كعدسة المصور . ولا عجب اذا ظهرت ابطاله بهذا الوضوح فهو قد تأملهم كثيراً ، وربما ان بينهم من حمله مرضعاً وماشاه صبياً ، وهو لم ينقطع عنهم الا حين شعر بارستقراطيته .

انه يعوّل كثيراً على استحسان الجماهير وضحكهم وتصفيقهم ، ومن كان كذلك ، عليه ان يفتش عن مثل الذي يفتش عنه سعيد . ومن هنا جاءت حملات سعيد الغواشم على الناقد حتى عده طفيلياً يعيش على الهامش . يجد موضوعه جاهزاً فيتهالك عليه كجوعان لم ير الخبز منذ اسبوع ، وعطشان لحس .

ان ضحك الجماهير وتصفيق النظارة هو عند سعيد الفوز الاعظم ، اما الخاصة ففي فمهم التراب . ليقولوا ما شاؤوا . اما صفق الجمهور وضحك ؟... ولهذا يتعمد العبارة الطريفة والنكتة البارعة . اما قال سعيد للمخرج : ازرع بين النظارة من يصفقون ، وهل في الدنيا كاتب غير سعيد يصرح بهذا ؟ وان كان الفن الدرامي هو في اثارة الضحك واشاعة الاستحسان ، فالخراج الاصطناعي لا يعمله الا نطس الاطباء .

اما انشاؤه فهو معمول في مسرحياته ليحكي لا ليقرأ ، وسنعود الى هذا في الكلام التفصيلي على مسرحياته وقصصه .

يحاول سعيد ان يقول الحقيقة دائماً ولو كانت تمس اقرب الناس اليه بل ذاته ، وهو دائماً يخرج من هزله حقيقة عملاً بقول موليير ايضاً : لا حقيقة بدون هزل ، ولا هزل بدون حقيقة . انه كالصيدلي الذي يعطيك ملبسة فيها الدواء المر ، ويموه سماجة الطعم بالحلاوة . السر في ان تقبلها وتزدردها والله الشافي فيما بعد .

يريد ان يضحك الجمهور ويهذّب اخلاقهم ، وهذا ما يعمله كل من كانت له طباع سعيد وقريحة سعيد ومواهب سعيد ، واطلاعه الواسع على الروائع العالمية التي يريد من كل قلبه ان يعمل مثلها وقد عمل . اما هذا الهزل في الادعاء فمن بضاعة سعيد . انه مؤمن بما يقول فيورده لك بهذا القالب المضحك حتى اذا لم تصدقه عده هزلاً وكفى الله المؤمنين القتال .

وسعيد يخرج مقاله احياناً بشكل تمثيلي ، وهذا يدلك على انه خلق كاتباً مسرحياً . اقرأ حديثه مع المخرج . بل سيرة حياته تر كيف مثلها تمثيلاً لا ينقصه الا المسرح والمخرج .

اما المسرح فيعنيه منه ان يكون سهل الوجود ، فبدلاً من الموبيليا لا بأس بالسحارة ، لانه يهدف الى ان يكون كل شيء طبيعياً .

ليس سعيد من ذوي الانبساط والمرح وليس من ذوي الضحكة الداوية ، ومواضيع مسرحياته ليست كذلك ايضاً ، فمن اين ينبثق اذاً هذا الضحك؟ في الغالب يكون التعبير مصدر ذلك ، او التكوين الذي خلقه لاشخاصه ، او الموقف الذي يراه صاحبه جدياً كل الجد بينما الآخرون يهزأون به ويضحكون من عقل صاحبه . ان تكبير الاشياء الهزيلة الحقيرة هو عنصر هام عنده بل هو وسيلته الى ابراز هؤلاء الاشخاص ، عرفهم صغيراً وابتعد عنهم كبيراً ، ولكن صورتهم كانت قد انطبعت في مخيلته ، وهو يستعيدها بتفاصيلها ساعة يشاء ، ويؤلف منها مشهده متى اراد فيأتي كل شيء طبق الاصل .

ان مشيخته جعلته يستهزيء ، بهم ، فيجعلهم يقتتلون على على لا شيء تقريباً ، على (عصا النوطرة) . صحيح ان هذا امر واقعي ولكن المؤلف يحتقر تلك الحفنة من البشر . ويحسبك استهزاءً بهم ، عند عقد الصلح ، تقديم العصا الى بيت الحمصي كأنها صولجان ملك ...

لهيب رماد

•

أيُّ مجدٍ هـذا الرماديُّ يزهو
كلواءٍ لفـاتحٍ منصـورِ !
لا من الشيب لونه ـ خسيء الشيب ـ
ولا من ضبـاب فجر مَطـير
لا ، ولا من نثار فضّةٍ قمراءَ ـ
بجـوٍّ مطيّب مسحـور
هو شيءٌ عـن جمر قلبي ذرَتهُ
نفحةٌ من هوًى رغيـدٍ قرير
نفحةٌ من هوىً عـلى جمر قلبي
عبرتْ فهو أيُّ وهـجٍ ونور !

*

جرّديه هـذا الرماديَّ نسجـاً
من رؤى خاطري ولطف الأثير
وائذني ان تُراحَ عيني عليـه
راحةَ الطفل في المهـاد الوثير
واخبئي تحته عوالم من سحرٍ ـ
ودنيـاً من فتنـةٍ وعطور
انا حسبي مـن السنى والعبـير
بخيـالي لمحُ السنى والعبيرِ !

رئيف خوري

اما الرواية الثانية فاسمها يدل على تقدير المؤلف لابطالها : حفنة ريح ... ازدراء وايما ازدراء . جلّ هـذه المسرحيات نقدية، فلا يفلت من قلم المؤلف شيء ولا يسلم من لسانه احد... فهو ينتقد حتى اقرب الناس اليه، ويجعله مثلاً لبطل من ابطاله.

ينتحل سعيد كلام ومشاهد غيره كما في ختـام رواية لولا المحامي حيث يشن الغارة على موليير . فوحدة الحال بينه وبين موليير تبرىء الموقف ، فدستور سعيد الفني دستور موليري: قاعدة القواعد هي ان ترضى وتعجب .

كل حياة سعيد قفز وجز، فمن مدرسة مارونية اكليريكية ارستقراطية محافظة، الى جامعة اميركية ديمقراطية لاتعبأ بالتقاليد الموروثة ، ومن لبنان بـل من الشوف الدرزي المحافظ الى المهجر . من لبنان ارض الثرثرة والانطواء على الذات الى ارض العمل حيث لا ذات الا للدرهم والدينار، ولا حديث غير حديث الجمع والقسمة والطرح والضرب .

شاب نشأ في بيت عتيق ، زرع في رأسه ابوه محبة هذا البيت ودعمه بكل ما لديه من قوى ، فراح يفتش عن الدعامة المثلى ـ المال ـ وهناك رأى هموم الناس الكبرى، فراح يضحك في مسرحياته من هموم القرية الصغرى . وانتزع من اختباراته العالمية فوائد شتى، وصور ابطال لمّها الى الساعة التي استيقظت فيها قريحته الهاجعة على اكليل الغار ، فكانت مواد مسرحياته واقاصيصه .

تنظر اليه فتحسبه جباراً عنيداً ، ولكنه يبدو لي مما قرأت له انه رجل طيب العنصر، وفيّ اذا احب ، دمث الاخلاق على تمام ألواحه وعرض كتفيه . فذاك الهيكل الضخم الذي يبديه كمصارع او ملاكم من الطراز الاول فيـه نفس طيبة تنم عنها تلك التعابير التي يخلقها وان لم تكن من العـدم فله فيها فضل التطبيق . الرجل ملهم بدون شك .

سعيد في نظر بعضهم يتعمد النكتة تعمداً ، اما انا فاري ان التعمد هو عمل ارادي لا بد منه لكل من يريد ان لا يكون مقلداً . يقول هؤلاء انه متطرف في هذا ، وانا اقول لهم اكثر من هذا ، اي ان سعيد اذا لم يوفق الى مثل هذه العبارات في مسرحياته واقاصيصه ومقالاته يمزق اوراقه . فغايته الاولى هي ان يستولي على الجماهير ويجرفهم في التيار الذي يصطنعه لجرهم الى حيث يشاء .

مسرحيات سعيد تصوير للحقائق بشكل مضحك، اما عقدة (نخب العدو) التي كلفته اجتراح العجائب كالمسيح ، فهذه في نظري ليست بالعنصر الهام في مسرحياته، لان دراماته ومهازله تقوم على نماذجه وشخوصه المعمولة على (قالب استعمال) لا جاهز . بل على ذاك الحوار الرائع .

هذا هو المجمل ، اما المفصل ففي الآتي ان شاء الله .

مارون عبود